

أخبار العرب

زواج على ورقة طلاق - قصة الوحدة المصرية السورية (1 من 3)

د. رءوف عباس

20 فبراير 2002

كانت الوحدة المصرية السورية التي أنبئت "الجمهورية العربية المتحدة" فصلا مثيرا من فصول التاريخ العربي المعاصر، عبرت عن أمل الجماهير العربية الكبرى التي تجمع شتاتهم، وتفرض وجودهم على الساحة الدولية، وتخلص الوطن العربي من البؤرة الصيدية التي أصابت عضوا من الجسد العربي في فلسطين.

علقت الآمال على دولة الوحدة التي ولدت على غير انتظار فجأة مع مطلع فبراير 1958، وحصلت على شهادة ميلاد رسمية بعد استفتاء شعبي كاسح في 21 فبراير، وجاءت ولادتها في أشد فصول الحرب الباردة تقريبا وهياجاً، فصل مليء بالأعاصير والعواصف والرعود التي أثارها قطبا الحرب الباردة وأصابت فيما أصابت شعوب العالم التي فضلت أن تملك عصمتها بيدها وتتأى بنفسها عن الارتباط بأحدى الكتلتين، جاء ميلاد الوحدة في هذا الجو المضطرب، بعد عامين من حرب السويس التي كانت علامة فارقة في تاريخ حركة التحرر الوطني في العالم وتاريخ الشرق الأوسط. ولكن الوحدة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات ونصف، فما لبث أن وقع انقلاب الانفصال في 28 سبتمبر 1961 لتطوى صفحة من تاريخ العرب المعاصر، ولينزوى معها أمل الوحدة الذي داعب أحلام الأجيال التي عاشت تنادى بالقومية العربية من العقد الأول من القرن العشرين والتي راعها أن تتبدد أحلامها بتقسيم المشرق العربي الى عدد من الدول والدويلات روعى في تصميمها مصالح الاستعمار فاقترن نضالهم ضد الاستعمار بالنضال من أجل اذابة الحدود المصطنعة واقامة الدولة العربية الواحدة.

تطلعت الجماهير العربية الى أن تكون الوحدة المصرية السورية نواة لدولة العرب الواحدة، فاذا بالوحدة تنفصم عراها قبل أن يتم تدعيم أركانها. ويقدر ماكان الزواج متسرعاً، كان الطلاق مفاجئاً، بل كانت الوحدة تحمل في طياتها بذور الانفصال. فاذا كنا اليوم نلقى نظرة على الوحدة، فمن حق جيل الشباب الذي لم يعيش أحداثها، والذي يقلقه واقع الأمة العربية، ويحيره أمرها أن يقف على أطراف القصة ليستخلص منها الدروس المستفادة التي يجب أن تكون نبراساً يهتدى بها كل من يهتم مستقبل الأمة العربية.

كانت سورية مهد الحركة العربية ومنبت الفكرة العربية منذ أواخر القرن الماضي، عندما بدأت نخبة من المثقفين العرب المتأثرين بالثقافة العربية، في مواجهة فكرة الجامعة الإسلامية التي كان يتبناها السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، ويتخذ منها أداة لضرب الدعوة الى الإصلاح والحركة المناوئة لحكمه المستبد، ثم ما لبثت الفكرة العربية أن تبلورت من خلال العمل السياسي العربي المقاوم لعنصرية الحكم التركي في العقد الأول من هذا القرن، عندما عملت حكومة الاتحاد والترقية على طمس الثقافات غير التركية، وتتركيب الشعوب التي تضمها الامبراطورية العثمانية، مما أدى الى احتدام الحركات القومية ضدها، وكان من بينها الحركة العربية التي لعبت سورية الدور الأكبر فيها وشاركها العراق مشاركة محدودة وبلغت المواجهة ذروتها باعدام الأتراك لقادة الحركة العربية عند بداية الحرب العالمية الأولى.

وهكذا كانت سورية مركز الثورة العربية الكبرى خلال الحرب العالمية الأولى التي ركب الهاشميون موجهها، وجنوا - وحدهم- ثمارها، ورغم تمزيق سورية الى أربع دول، الا أن توحيد سورية، واقامة الدولة العربية الواحدة ظل غاية يسعى القوميون العرب لادراكها، ودعوة تستخدمها الأحزاب السياسية على إختلاف توجهاتها لحشد الجماهير وراءها.

الإنتماء البديل

أما مصر فقد إختلفت ظروفها عن سورية إختلافاً بيناً، فكان وقوعها تحت الاحتلال البريطاني عام 1882، وسعيها للتخلص من ريقته، يجعل الحركة الوطنية فيها تتمسك بالتبعية للدولة العثمانية التي كانت طوق النجاة من الاحتلال الأجنبي، وخاصة أن مصر كانت -في ظل الحكم العثماني- تتمتع باستقلال ذاتي كامل كسبه لها محمد علي، ودعمه حفيده الخديو إسماعيل، فلم تكن يد الدولة العثمانية في مصر محسوسة على نحو ما كانت عليه الحال في الولايات العربية الأخرى. وترتب على تلك الظروف الخاصة التي فرضها وجود الاحتلال البريطاني تبني مصر لفكرة الجامعة الإسلامية ونفورها من الفكرة العربية، بل واعتبار المنادين بالعروبة عملاء للاستعمار الأوربي. يريدون تمزيق دولة الخلافة الإسلامية.

وعندما هزمت الدولة العثمانية في الحرب الأولى وعانت مصر من الحماية البريطانية، كانت دعوة القومية المصرية هي الانتماء البديل الذي تقبل به النخبة السياسية المصرية التي تسعى لتحقيق استقلال مصر، وعكست أفكار أحمد لطفى السيد وتلاميذه ملامح الفكرة المصرية، وجاءت ثورة 1919 لتحول الفكرة الى حركة شعبية، امتزج فيها الكفاح الوطنى بتأكيد الهوية المصرية.

وظل الموقف من العروبة والحركة العربية سلبيا، فلم تلق الثورة العربية الكبرى 1916 ترحيبا فى مصر لعلاقة الانجليز بقادتها، ورفض سعد زغول فكرة التنسيق مع دعاة القومية العربية عندما جاءه وفد منهم (من بينهم ساطع الحصرى) يعرض عليه توجيه طاقة الحركة الوطنية المصرية لدعم الحركة العربية، فكان رد زغول: "إذا جمعت صفرا إلى صفر إلى صفر ماذا تكون النتيجة" تعبيراً عن إستخفافه بالحركة العربية، ولم يقتنع بالاجابة التى قدمها الوفد العربى بأن النتيجة تصبح واحدا صحيحا".

وفى فترة ما بين الحربين العالميتين، كان التيار الغالب فى مصر هو تيار القومية المصرية. مع بعض الاختلاط بالفكرة الاسلامية، فكان التعاطف مع الحركات الوطنية العربية فى سورية وفلسطين يدور فى سياق "الأخوة الاسلامية"، ولم يجذب مصر الى الاهتمام بالعروبة سوى القضية الفلسطينية والمخططات الهاشمية (ذات الصلات البريطانية) لاقامة مشاريع وحدوية كالهلال الخصيب وسورية الكبرى، وهما مشروعان عارضتهما مصر حرصا على مصالحها الإقليمية، وكان اهتمامها بفلسطين بدافع الحرص على الأمن القومى المصرى. وتبنت مصر مشروع "الجامعة العربية" بحكم وزنها الاقليمى لتقطع الطريق على المخططات الهاشمية.

نهوض الحس القومى

وجاءت حرب فلسطين 1948، وما ترتب عليها من قيام دولة الكيان الصهيونى ليزيد من اهتمام مصر بالحركة العربية، وإن ظل الشعور بالانتماء القومى المصرى قويا تتردد أصدأوه فى برامج التعليم، بل وفى المؤشرات العديدة التى صاحبت ثورة يوليو عند قيامها، (مثل نقل تمثال رمسيس من ميت رهينة الى باب الحديد، والأناشيد القومية المصرية، وغير ذلك من مؤشرات). وجاء إهتمام جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة بالدائرة العربية من منطلق الأمن القومى المصرى، وجاءت بعدها الدائرة الأفريقية ثم الدائرة الاسلامية.

ولكن إهتمام ثورة يوليو بتأمين الدائرة العربية من خلال تشجيع وتأكيد حركات التحرر الوطنى ماديا واعلاميا، جعل الشعوب العربية الخاضعة للاستعمار ترى فى ثورة يوليو طوق النجاة من الاستعمار. وجاءت حرب السويس 1956، لتجسد فى عبد الناصر صورة المخلص (بتشديد اللام وكسرهما) الذى تعلقت به آمال الشعوب العربية.

هذه خلفية ضرورية لابد منها لفهم ظروف طرفى العمل الوجدوى (مصر وسورية)، فبينما كانت الفكرة العربية والحركة العربية وحلم الوحدة العربية تمثل وجدان الشعب السورى، كانت شيئا هلاميا غير محدد المعالم عند الشعب المصرى، الذى لم يتعرف على العروبة الا من خلال مفاهيم التضامن مع اخوة الدين واللغة، كتعاطف الجار مع جاره وليس نجدة الأخ لأخيه. أقول هذا باعتبارى أحد أبناء الجيل الذى تفتح وعيه فى نهاية الأربعينات، وعاش أحداث الخمسينات - وخاصة تجربة الوحدة- بوعيه الكامل ووجدانه. وأستطيع أن أقرر أن حدث الوحدة جاء مفاجأة لم يعد لها المصريون، ولم يستوعبوا فكرة العروبة التى هبطت عليهم فجأة، وامتزج فهمها عند أجهزة الاعلام بخطة عجيبة جمعت بين الدينى والقومى، واستدعت صلاح الدين الأيوبى من سياق تاريخى مغاير لتدلل على أصالة الروابط بين الشعبين السورى والمصرى، وناهيك عن الفاطميين والمماليك، ودور الأزهر فى حماية الثقافة العربية الى آخر ما سبق من مبررات.

كانت سورية فى منتصف الخمسينات تجلس على فوهة بركان فالساحة السياسية تموج بأحزاب متعددة التوجهات، والعراق يتربص بسورية التى أيدت على طول الخط مواقف عبد الناصر المعارضة لحلف بغداد، إلى حد تدبير إنقلاب عسكري يقوم به الدكتاتور المخلوع أديب الشيشكلى يدعمه غزو عسكري عراقى لسورية فى نفس توقيت العدوان الثلاثى على مصر، وهى المؤامرة التى تم كشفها، وعززت موقف الضباط السوريين المؤيدين لعبد الناصر والذين لعبوا دورا هاما فى دعم مصر خلال العدوان بنسف أنابيب البترول التى تمر عبر سورية، وتعالق أصوات هؤلاء وبعض الساسة فى أعقاب العدوان الثلاثى للمطالبة بالوحدة مع مصر لانقاذ سورية مما تتعرض له من ضغوط. وجاء مشروع أيزنهاور عام 1957 الذى دعا إلى إنفراد الولايات المتحدة بالدفاع عن الشرق الأوسط لشغل الفراغ الناجم عن إنسحاب القوى الاستعمارية التقليدية ومقاومة الخطر الشيوعى، ليزيد من توتر الساحة السياسية فسورية، ويدعم الاتجاه المنادى بالوحدة مع مصر.

كانت مفاتيح القوة فى سورية -عندئذ- بيد مجموعة من الضباط لكل منهم أتباعه، بعضهم ينتمى لحزب سياسى معين وبعضهم الآخر ليس له إنتماء حزبى، ولكنه قومى النزعة، أما العمل السياسى فكان قسمة بين البعث والحزب الشيوعى، وفى صيف 1957 تولى رئاسة أركان الجيش ضابط شيوعى هو عفيف البزرى، مما جعل الغرب يرى فى تلك التطورات

مؤشرا على تحول سورية إلى قاعدة للتغلغل الشيوعي في المنطقة، وأرسلت أمريكا مبعوثا طوف بالبلاد المحيطة بسوريا لحشدتها للتدخل العسكري ضد سوريا.

وعلى الفور حشدت تركيا قواتها على الحدود السورية، كما قامت القوات العراقية بالتجمع على الحدود المشتركة مع سوريا فهرع قائد الأركان السوري عفيف البرزى وعبد الحميد السراج قائد المخابرات السورية إلى القاهرة يعرض الأمر على عبد الناصر وطلب مساعدة مصر، وعلى الفور قررت القاهرة إرسال أسطول مصرى يضم بضع ناقلات للجنود وثلاث مدمرات وصلت بالفعل إلى ميناء اللاذقية في 14 أكتوبر 1957، مما كان له صدها في سورية وفي الأوساط الدولية التي يعينها أمر المنطقة فكان معنى ذلك أن مصر لا تقبل أن تترك سوريا نهبا للمؤامرات الاستعمارية، وأنها تقف معها في خندق واحد.

وعلى الصعيد السوري، بدأ حزب البعث يدفع الأمور بقوة في اتحاد الوحدة مع مصر، فرغم أن الحزب يعد قاعدة الدعوة للقومية العربية إلا أنه كان يفتقر إلى القاعدة الشعبية التي تكفل له الوصول إلى الحكم في إطار نظام لبيراي، ورأى البعث في عبد الناصر أملة المنشود في تحقيق أهدافه لسياسية على الصعيدين المحلي والقومي، فقد أصبح الزعيم القومي العربي بعد عام 1956 الذي سلمت له الجماهير العربية قيادها، وهو أول حاكم مصرى في التاريخ يتوفر له ذلك، ومن ثم رأى فيه البعث "بسمارك" العرب، الذي يملك القوة والشعبية، على حين يستطيع قادة البعث أن يقدموا له الفكر والتوجيه. هذا فضلا عما هو معروف من عدا عبد الناصر للشيوعية ونفوره من لشيوعي، فتسليم أمور سوريا لعبد الناصر من خلال الوحدة ينهى التنافس البعثي -الشيوعي على السلطة، ويحسمه لصالح البعث.

وساعد على توجيه مسار الأحداث وجهة الوحدة الفورية عجز أجنحة الجيش المتصارعة في الاتفاق على زعامة تتولى زمام الأمور، فكان كل جناح فيها يتوجس خيفة من الآخر، وزادت شقة الخلاف بينهم في ذلك الوقت الدقيق من تاريخ البلا، وشجعهم قادة البعث على التوجه إلى القاهرة لطلب الوحدة مع مصر.

وفي ليلة 12/11 يناير 1958، طار إلى القاهرة أربعة عشر ضابطا يمثلون مختلف مراكز القوى في الجيش السوري، يحملون معهم مذكرة بطلب الوحدة، وقع عليها جميع أعضاء المجلس العسكري السوري. ولكن جمال عبد الناصر طلب أن يأتيه العرض من الحكومة السورية الشرعية، ومن الرئيس السوري شكرى القوتلى، وليس من قيادة الجيش السوري.

وعاد الضباط - في اليوم التالي- وبصحبته صلاح البيطار، قطب حزب البعث ووزير الخارجية، ليلتقوا بالرئيس عبد الناصر في 16 يناير، ويعلن أمامه صلاح البيطار " أن الحكومة السورية تريد إتمام الوحدة كمطلب شعبى وقومى دائم، وكطريق لا بديل غيره إلى إستقرار سورية".

شروط عبد الناصر

وأبدى عبد الناصر إستعداده لقبول المبدأ، ولكنه وضع ثلاثة شروط يتوقف عليها قبوله للوحدة الفورية:

1. أن يجرى إستفتاء شعبى على الوحدة في مصر وسوريا، حتى يقول الشعبان فيهما رأيهما الحر، ويعبران عن إرادتهما وإختيارهما.
2. أن يتوقف النشاط الحزبى السوري، وأن تقوم كل الأحزاب السورية -دون إستثناء- بحل نفسها.
3. أن يتوقف تدخل الجيش في السياسة توقفا تاما، وأن ينصرف ضباطه إلى مهامهم العسكرية، ليصبح الجيش أداة دفاع وقتال، وليس أداة سلطة وسيطرة، ومعنى ذلك أن قادة الكتل السياسية في الجيش - وفي مقدمتهم أعضاء المجلس العسكري جميعا- عليهم ترك الخدمة العسكرية والتفرغ للعمل السياسى.

وأصر جمال عبد الناصر على قبول هذه الشروط دون تعديل، حتى يقبل بالوحدة بين البلدين.

وكانت تلك الشروط تتم عن براعة سياسية وبعد نظر، فقد حرص عبد الناصر على تصفية المسرح السوري من القوى الضاغطة العسكرية والمدنية على السواء، حتى لا تعتبر نفسها مصدر الشرعية السياسية لدولة الوحدة. وحرص على أن يستمد النظام الجديد شرعيته من الشعبين المصرى والسورى وحدهما من خلال الإستفتاء.

وقبل التحرك السريع صوب الوحدة الذى قام به ضباط الكتل العسكرية داخل الجيش، عدل الحزب الشيوعي السوري تكتيكية لمواكبة تيار الوحدة الجارف مع محاولة الحد من قوته، فطرح فكرة إقامة إتحاد فيدرالى نظرا لاختلاف ظروف البلدين وتعزيزا للحرية والديمقراطية، غير أن رئيس الأركان عفيف البرزى لم يلتزم برأى الحزب، أو لعله فضل عدم مخالفة إجماع المجلس العسكرى حتى يظل له ولحزبه وجود في النظام الجديد. ولكن مخاوف الشيوعيين كان لها ما يبررها على ضوء تمسك عبد الناصر بتصفية العمل الحزبى.

وبعد مناقشات صاخبة، وافق البعث على شروط عبد الناصر، فقد حصل رجاله على تأكيدات شفوية من عبد الناصر بأن "الاتحاد القومى" التنظيم السياسى الوحيد لدولة الوحدة، سوف يقام وتجرى الانتخابات له بعد قيام دولة الوحدة دستوريا، فأعطاهم ذلك الوعد أملا في أن يكون لهم دور القوة المحركة للتنظيم السياسى في غيبة الأحزاب الأخرى، وخاصة أنهم مهندسو الوحدة، فهم يقدمون للاتحاد القومى الفكر والحركة، ويكون نصيب عبد الناصر الزعامة والقيادة. وقد أثبتت الأيام

فيما بعد، أن قادة البعث كانوا على قدر كبير من قصر النظر والسذاجة، فقد أراد عبد الناصر أن يصوغ نظام دولة الوحدة على نسق آخر، لا يسمح لهم بأن يتحولوا لمركز قوة داخل التنظيم السياسي أو داخل السلطة.

كانت الجماهير في سورية تتقد حماسا للوحدة، وأصبحت تمثل قوة ضاغطة لا يمكن إسقاطها من الحساب، ولم يعد بمقدور أحد من العسكريين أو السياسيين أن يتراجع أو يماطل، فقد خرجت عجلة الأحداث منذ الحشود العسكرية على حدود سوريا في خريف 1957 عن إطار التحكم، وفي يوم أول فبراير 1958 أعلن الاتفاق على أسس الوحدة بين مصر وسورية. وفي 5 فبراير عقد مجلس الأمة بالقاهرة إجتماعا، كما عقد مجلس النواب السوري في دمشق إجتماعا. قرر كل مجلس في إجتماعه الموافقة على طرح أسس الوحدة في استفتاء عام يجرى يوم 21 فبراير مع ترشيح جمال عبد الناصر رئيسا لدولة الوحدة التي حملت اسم "الجمهورية العربية المتحدة". وجرى الاستفتاء في الموعد المحدد، وجاءت نتيجته كاسحة لصالح الوحدة ورئاسة عبد الناصر.

هواجس إقليمية ودولية

وفي 24 فبراير وصل عبد الناصر إلى دمشق فاستقبل استقبالاً رائعاً زحفت فيه الجماهير من مختلف أنحاء سورية إلى دمشق في مشهد فريد من مشاهد التاريخ العربي المعاصر. كان مثار قلق الأنظمة العربية التي نظرت بعين الريبة إلى زعامة عبد الناصر مثل العراق والأردن والسعودية ولبنان وجيران سورية من غير العرب وخاصة تركيا التي كتب رئيس وزرائها عدنان مندريس إلى جون فونستر دالاس وزير الخارجية الأمريكي يقول: "إن الموقف الحالي وتطوراتها تدعونا إلى إعادة تقييم الأمور، لقد ذهب إلى فراشي بالأمس وعلى حدود بلادى الجنوبية سنة ملايين، واستيقظت صباح اليوم لأجدهم قد أصبحوا 36 مليوناً..". وأثار قيام دولة الوحدة حلف الأطلنطي فعقد دورة طارئة للنظر في التغييرات الاستراتيجية الناجمة عن دولة الوحدة، فراح ممثل تركيا ينبه أعضاء الحلف إلى خطورة عبد الناصر حليف السوفييت، وما يمثله قيام الوحدة من وقوع تركيا بين فكي الكماشة الشيوعي على حدودها الشرقية والجنوبية. وقدم ممثل بريطانيا مذكرة عن "التوسع الامبريالي المصري" ذكر فيها زملاءه بأطماع محمد على التوسعية في المشرق العربي في القرن التاسع عشر، وأكد أن عبد الناصر هو الوريث لتلك الأطماع. وأن هدفه النهائي ضم البلاد العربية جميعا تحت حكمه، إضافة إلى السودان وبلاد القرن الافريقي، وأنه بصداقته للسوفييت يفتح الباب للنفوذ الشيوعي للتغلغل في المنطقة التي تضم مصالحي حيوية للغرب بترولية واستراتيجية. وحاول ممثل إيطاليا وكذلك ممثل اليونان عبثا أن ينعنا زملاءهما بأن حركة القومية العربية حقيقة واقعة، وأن عبد الناصر لا يضمم العداء للغرب، وأنه يمكن التعامل معه لو تفهم الغرب الألماني القومية للعرب.

أما الاتحاد السوفيتي، فقد فاجأته الطريقة التي تم بها إعلان الوحدة والأسلوب الذي تمت به، وخاصة أنها تضمنت تصفيته لدور الحزب الشيوعي السوري، فقد أسرع زعيمه خالد بكداش بمغادرة دمشق إلى صوفيا يوم 4 فبراير 1958 (قبل انعقاد مجلس النواب السوري الذي كان أحد أعضائه)، واتخذ صوفيا مركزا للهجوم على دولة الوحدة وعبد الناصر. هذا فضلا عن رؤية خروشوف المعادية للفكرة القومية عموما والقومية العربية خصوصا على نحو ما اتضح فيما بعد عندما نشب الصراع بين عبد الكريم قاسم وعبد الناصر بعد قيام ثورة العراق، وقيام حملة علنية من الهجوم السافر بين عبد الناصر وخروشوف نتج عنها قيام عبد الناصر باعتقال جميع الشيوعيين في الجمهورية العربية المتحدة ليلة رأس السنة (1958/1959)، وظلوا في السجن حتى عام 1964.

كان هدف الوحدة نبيلاً يجسد أمل الأمة العربية في إقامة الدولة العربية الواحدة، ولكن إعلان الوحدة المصرية-السورية بهذه الطريقة جاء تلبية لضغوط خارجية وداخلية تختص بها سورية، فكان الارتباط بين البلدين ضرورة أمن قومي أكثر من كونها تحقيق لهدف قومي. ولم تكن مصر مهية تاريخيا لهذا النوع من العلاقة، فبدأت متاعب التوافق والمواءمة تطل برأسها لتمهد الطريق إلى إنفصال مفاجئ على نحو ما سنرى.
